(١٩) ولا نجادل في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

اعلموا يارعاكم الله أن الناس ليس أهل القبلة فقط؛ لأن من سأذكرهم بعضهم ليس من أهل القبلة قد اختلفوا في كلام الله وفي القرآن على أقوال فمن أقوالهم **مقالة الفلاسفة** من الصابئة والدهرية وغيرهم يقولون عن القرآن وعن عموم كلام الله عز وجل إنه فيضٌ من العقل الفعّال على بعض النفوس الزاكية يوجب لها تهيئات حتى تتخيل أشكالاً وتسمع أصواتاً فهذه دعوى الفلاسفة وهم ملاحدةٌ كفار بإجماع أهل الإسلام يقولون أنه مجرد فيض لا يمكن أن يوصفوا هذا الفيض كيف فاض لكنه فيضٌ من العقل الفعّال الذي يسندون إليه جميع الأحوال والتدابير العلوية والسفلية على النفوس الزاكية يقصدون بها نفوس الأنبياء، لأن كما سيأتينا إن شاء الله أن لهم في الأنبياء ثلاثة شروط فلذلك كانت نفوسهم زاكية مستعدة لتقبل ذلك الفيض، هذا الفيض يكيف نفوس هؤلاء بحيث تتخيل أجسام النورانية هم من تسمونهم الملائكة وتسمع أصواتاً هي ما تسمونه الوحي، هكذا يزعم هؤلاء الفلاسفة الدهرية والصابئة ومن على طريقتهم.

القول الثاني: تهيئات بحيث يتخيلون أجساماً نورانية وأصواتاً مسموعة فالأشكال هي الملائكة والأصوات هي الوحي، القول الثاني **قول الاتحادية من غلاة الصوفية** فإن الاتحادية بناءً على أصلهم الفاسد والعياذ بالله بالقول بوحدة الوجود يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى متحدٌ بالمخلوقات هذا مذهب ابن عربي وابن سبعين والتلمساني ورؤوس الضلالة من زنادقة الصوفية يزعمون أن الله متحد بالمخلوقين وأن عين الخالق عين المخلوق مذهبٌ هو أشد المذاهب كفراً وإلحادًا، أشد كفراً من اليهود والنصارى والجهمية مذهب هؤلاء الاتحادية ناتج مذهبهم أن كل كلامٍ وصوت في الوجود فهو كلام الله؛ لأنهم لا يفرقون بين الخالق والمخلوق فعنهم أن عين الخالق هو عين المخلوق لا فرق لهذا قال ناظمهم:

وكل كلامٍ في الوجود كلامه سواءٌ علينا نثره ونظامه

إذاً والعياذ بالله أصوات الآدميّن والبهائم والطيور والحشرات وأزيز الطائرات وأصوات المحركات وما يستحى من ذكره ويهاب من التمثيل به كل ذلك والعياذ بالله يعدونه كلام الله عز وجل فهذان مذهبان كفريان لا شك في كفر قائلها.

بعد ذلك نأتي إلى أقوال أهل القبلة، فالجهمية والمعتزلة قد سبقنا الحديث عنهم وهو أنهم بناءً على

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

أصلهم الفاسد ينفون صفات الله لا يثبتون لله صفةً وجودية إذ يعتقدون أن الله تعالى هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق وبناءً على هذا الأصل فإنهم لا يثبتون صفة الكلام لله عز وجل وبالتالي لا يثبتون القرآن وصفاً له سبحانه فيقولون إن الله خلق كلاماً سماه قرآناً فالقرآن مخلوق، ولما تمكن هؤلاء وتسللوا إلى بلاط الخلفاء العباسين وأضلوا الخليفة المأمون حصلت المحنة الشهيرة العظيمة التي امتحن بسببها أئمة الإسلام وثبت الله فؤاد الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- حتى كان عصمةً للأمة في هذه المسألة إذ كان أمير المؤمنين بالحديث والسنة وكان الناس يرقبون ما يصدر عنه فلما ابتلي بهذه المحنة ثبت ثبوت الجبال الرواسي وأبى أن يوافقهم فيما طلبوا وتحمل في ذات الله الحبس والضرب وناله في ذلك الابتلاء الذي رفعه الله تعالى به الدرجات العلى في هذه الدنيا من القبول والرضى وما نرجوه له عند الله تعالى أعظم، فأبى -رحمه الله- **وأبى أئمة الإسلام إلا أن يقولوا القرآن كلام الله منزلٌ غير مخلوق** والآثار في هذا أكثر من أن تذكر في تواتر هذه المقولة عن سلف الأمة وإبائهم الشديد أن يوافقوا المعتزلة على هذا الاستزلال حتى مرت المحنة بعد موت المأمون والمعتصم والواثق ولما جاء زمن المتوكل رفع المحنة وخل الناس فعاد الأمر إلى طبيعته.

إذاً: هذا هو مذهب هؤلاء وبناءً عليه يعتبرون أن كلام الله هو الحروف والأصوات دون المعاني لأنهم لا يثبتون وصفاً لله تعالى والوصف معنى يقوم في ذات المتصف به فعندهم أن كلام الله حروف وأصوات مخلوقة وليس ثم معنى هذا مذهب الجهمية والمعتزلة.

هناك مذهب الكرامية وهو أن الله تعالى تكلم بالقرآن أو تكلم بعد ألم يكن متكلما فالكّرامية يقولون بقولٍ يترتب عليه إثبات وصفٍ لم يكن الله متصفاً به وهذا هو ما يستقيل به نفاة الصفات على مثبتة الصفات ويقولون أنه يلزم من ذلك أن تصفوا الله تعالى بما لم يكن متصفاً به فإما أن يكون ذلك الوصف كمالاً ولابد لكم من ذلك فيكون قبل أن يتصف به غير كامل في أسمائه وصفاته أو أن يكون كاملاً قبل أن يتصف به فإضافة الشيء هذا إليه إضافة نقص فهم يلزمونهم بهذا فالكّرامية لا يخرجون من هذا الإلزام لأنهم يلتزمون بأنه وصفٌ حدث بعد ألم يكن.

والفريق الثالث: فريق الصفاتية وهذا يشمل مقالاتٍ متعددة لكنها يجمعها جامعً واحد، الصفاتية يشمل فرقاً مثل الكلابية المنسوبون إلى عبد الله بن سعيد الكلاب والأشعرية المنسوبين إلى أبي الحسن الأشعري، والماتوريدية المنسوبين إلى أبي منصور الماتوريدي، والسالمية المنسوبين إلى فرقة يقال لها السالمية ومن قاربهم يقولون بإثبات الكلام النفساني يعني ظاهر مقالاتهم مخالفة المعتزلة وموافقة السلف فهم في عقائدهم يثبتون صفة الكلام لله عز وجل ويقولون القرآن كلام الله منزلٌ غير مخلوق هكذا يقررون ما يقرره أئمة السلف هذه بعضهم وهم الكلابية

قالوا هي حكاية عن كلام الله وقالت الأشاعرة عبارة عن كلام الله.

إذاً: الحروف والأصوات ليست صفته قالوا لا ليست صفته كلام الله هو المعنى القديم لأنه لا يمكن أن يتجدد شيء لله عز وجل بعضهم عبر بكذا حروفٌ مجتمعةٌ منذ الأزل هذه بعض مقالاتهم أو تفاصيل مقالاتهم، حتى إن السالمية يقولون لا يسبق بعضها بعضاً فإذا قال بسم الله فلا تسبق الميم السين ولا تسبق السين الباء تفاصيل يدرك الإنسان أنها من التكلف ومن الباطل الذي جرهم إليه العزوف والزهد في جمل القرآن وألفاظه وكلام النبي صلى الله عليه وسلم العدل البين.

إذاً: هم يقولون أن الحروف والأصوات إما حكاية عن كلام الله أو عبارة عن كلام الله، وعند التأمل لا يجد الإنسان فرقاً بين ما قالته الكلابية أو ما قالته الأشاعرة؛ لأن حكاية وعبارة معناهما متقارب والقوم متفقون على أن الكلام هو المعنى وأن الحروف والأصوات التي سمعها الأبوان في الجنة وسمعها موسى عليه السلام عند الشجرة وسمعها نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ويسمعها عيسى عليه السلام يوم القيامة أنها مخلوقة لتعبر عن كلام الله أو لتحكي كلام الله، إذاً هم في الحقيقة في هذا الشق وافقوا المعتزلة وقد قال بعض حذاقهم إنه عند التأمل ليس بيننا وبين مذهب المعتزلة فرق؛ لأنهم في الحقيقة لم يثبتوا الكلام لا يمكن أن يكون فقط هو ما يقوم في النفس، أنت حينما يعتمل في نفسك معاني متعددة لا تسمى متكلماً حتى تتفوه بها وأما ما استدلوا به من بيت الأخطل النصراني

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

هذا لا يمكن أن تعارض به آي الكتاب ونصوص السنة لا سيما أنها صادرةٌ من شاعرٍ نصراني والنصارى عندهم مشكلةٌ أزلية في مسألة الكلمة حتى إن ضلالهم هذا أوجب لهم أن يعتقدوا الحلول في عيسى عليه السلام لأن الله خلقه بكلمته فالتبس عليهم الأمر وظنوا أن لازم ذلك أن يكون اللاهوت حل في الناسوت، فأي مرجعٍ لكم أن تستدلوا ببيتٍ قيل أيضاً أنه بيتٌ مصنوع وعلى فرض صحته فهو منسوبٌ إلى شاعرٍ نصراني لا يعول على كلامه قد إلتاث بلوثةٍ نصرانية وأراد معناً معيناً قد فسره

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ويمكن أن يقلب عليهم الدليل ويقال لهم إن الشاعر قد بين بأن هذا الكلام لا يكون كلاماً حتى يدل عليه الدليل بالتعبير عنه باللسان فقد جمع شقي المعنى وهو اللفظ والمعنى وقد لبس المعتزلة بتلبيساتٍ كثيرة في هذا المقام منها مثلاً قولهم: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الزمر: ٦٢] أليس القرآن شيئاً، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٠١] فالقرآن شيء من الأشياء فيقال لهم إن القرآن العظيم لا يدخل في هذا العموم لأن القرآن صفته وإلا للزمكم أيضاً

أن تقولوا الله خلق علمه الله خلق هداه الله خلق إرادته الله خلق كذا وكذا وكذا وإنما أراد الله تعالى بقوله: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الزمر: ٦٢] من المخلوقات هذا هو المراد لا ما ذهبتم إليه من زعمكم بأن القرآن شيءٌ من المخلوقات هو صفته والشيء يطلق على كل عين وكل وصف ولهذا قال الله تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} [الأنعام: ١٩]فهل تقولون الله خالق كل شيء يتناول هذا الشيء.

ومما أيضاً لبسوا به قول الله عز وجل: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ٣] قالوا إن الجعل يعني الخلق وهذا من جهلهم باللغة لأن جعل إذا تعدت إلى مفعولين فإنها لا تدل على الخلق وإذا تعدت إلى مفعولٍ واحد دلت على الخلق فتعديها إلى مفعولٍ واحد مثل قول الله تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١]فقد خلق الله الظلمات والنور وأما قوله: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا } [الزخرف: ٣] فقد تعدت إلى مفعولين فإن هذا لا يدل على الخلق ولهم أيضاً في هذا شبهٌ كثيرة لكنها كما قيل:

حججٌ تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكلٌ كاسرٌ مكسور

وقد كان لهذه المسألة مسألة خلق القرآن أثر عظيم في حياة الأمة الإسلامية وجرى فيها خلفٌ ونزاع بين أهل السنة وصارت فيصل التفرقة بين أهل السنة وبين المعتزلة فاعتصم أهل السنة المحضة بما دل عليه الكتاب والسنة وعافاهم الله تعالى من المقالات المبطلة وكان مما عابه أهل السنة أن عابوا على الواقفة توقفهم لأن هذا ورعٌ بارد ليس هذا محله لا يجوز التوقف فيما أمر الله فيه بالقطع والجزم والاعتقاد بل نقول بما قال الله تعالى به وقال به نبيه صلى الله عليه وسلم وهاهنا أمرٌ لابد من التنبه له وهو أن يفرق بين القراءة والمقروء التلاوة والمتلو الكتابة والمكتوب السماع والمسموع التسجيل والمسجل ونحو ذلك فلا بد من التمييز لأن من الناس من يظن أن مقتضى قول أهل السنة والجماعة القرآن كلام الله أنه لا يحل لك أن تقول عن المصحف بورقه وحبره وجلده أنه مخلوق وهذا من الغلو ومن الخطأ والشطط في التفكير، ليس هذا هو المراد لا ريب أن الورق والحبر والجلد مخلوق فرقٌ بين الكتابة والمكتوب، فالكتابة فعل العبد والمكتوب قول الحق، القراءة فعل العبد تحريكك لشفتيك ولسانك وحنجرتك كل هذا فعل العبد والمقروء قول الرب والتسجيل فعل العبد والمسجل قول الرب والسماع فعل العبد لإصغائه إليه والمسموع قول الرب، وعلى هذا ميز بين المقامين ولهذا قال الإمام أحمد –رحمه الله– من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، تأملوا هذه الجملة هل يقول الإنسان لفظي بالقرآن مخلوق أم لا؟ سبب هذا الجواب المتنوع من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي لأن الذي يقول القرآن مخلوق يوافق الجهمية في زعمهم أن القرآن مخلوق والذي يقول غير مخلوق فقد أتى بقولٍ لم يسبق إليه فوصفه بالبدعة وسر ذلك **أن كلمة لفظ تحتمل أحد معنيين: تحتمل الملفوظ به، وتحتمل التلفظ** فإذا قلنا أن لفظي المقصود به

الملفوظ به فماذا يصبح معنى قوله لفظي بالقرآن مخلوق يعني جعل كلام الله مخلوقاً لأنه الملفوظ به وإذا قلنا أن المقصود التلفظ فقال لفظي بالقرآن مخلوق قصد بذلك التلفظ فهذا صواب فيه تلبيس فيجب التفريق بين هذين المقامين ولما لم يميز بينهما بعض الناس صار منه ظلمٌ وعدوان فإن الإمام البخاري –رحمه الله– طاله بسبب ذلك أذية من بعض أهل السنة حيث لم يميزوا كلامه وحملوه على محملٍ ربما كان بسبب الحسد أو غيره وامتحن بذلك – رحمه الله– ولكن الحق كان فيما قاله وقرره كما بين ذلك ابن القيم –رحمه الله– وغيره.

ثم قال الشيخ –رحمه الله – (ولا نجادل في القرآن ونشهد أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين فعلمه سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيءٌ من كلام المخلوقين ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين).

(**ولا نجادل في القرآن**) القرآن ليس موضعاً للجدل القرآن العظيم كلامٌ محكم ليس محلاً للتجاذبات فالمؤمنون هم أسعد الناس بالقرآن والمبتدعه هم أشقى الناس بالقرآن قال الله عز وجل: {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ٢] وصف الله تعالى كتابه بأنه نور وبيان وموعظة وهدى وأوصاف جليلة عظيمة إن وجدت ذلك فاعلم أنك على الجادة وإن وشقي به الأبعد رأى فيه إشكالات وأغلوطات وغير ذلك فمن نفسه الخبيثة أتي، القرآن العظيم ليس إلا هدى ونور وبيان وموعظة وشفاءٌ لما في الصدور{مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ٢] المبتدعه شقوا بالقرآن وصاروا يعملون تأويلات الباردة المتكلفة المتعسفة ليعسفوا القرآن على ما يبتغون فيأبى القرآن القرآن منيع كما قال الله عز وجل: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت: ٤٢]، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]فلا يجوز أن يتخذ القرآن للجدل لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم مرةً على أصحابه وهم يتنازعون في القرآن هذا ينزع آية وهذا ينزع آية فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال: (بهذا أمرتم أم بهذا كلفتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض عزمت عليكم ألا تعودوا وقال: ما ضل قومٌ بعد هدى عليه إلا أوتوا الجدل).

فقال: (ولا نجادل في القرآن ونشهد أنه كلام رب العالمين) هذا موافقٌ لما تقدم ونحن نشهد أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام فعلمه سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم قد ذكر الله تعالى ذلك في سورة القيامة قال{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٦ – ١٩]كان نبينا صلى الله عليه وسلم لشدة شفقته وحرصه على ألا يتفلت عليه القرآن يحرك به لسانه حتى يتحفظه أثناء تنزله عليه فطمأنه الله تعالى بأن تكفل له بجمعه في صدره ثم زاد على ذلك بيانه {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } [القيامة: ١٧]والقرء بمعنى الجمع، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة:

١٩]فبين الله تعالى لنبيه معاني ما أنزل إليه لم يدع الله تعالى شيئاً لم يبينه لنبيه صلى الله عليه وسلم وفقه نبينا جميع ما أنزل إليه من ربه ثم هو علم أمته ذلك بما لا يدع مجالاً لدعوى مدعٍأن شيئاً من القرآن مجهول كما يدعيه أهل التفويض المجهلة الذين يزعمون أن في القرآن ماهو غير مدركٍ على الإطلاق فهذا باطل لأن الله تعالى تكفل بذلك {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩] وقال: { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل: ٤٤]فقد حصل البيان بحمد الله وكان جبريل عليه السلام يدارس النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان كل ليلة فلما كان في السنة التي قضي فيها دارسه وعرضه القرآن مرتين وهذا تفقيهٌ للنبي صلى الله عليه وسلم حتى بين النبي صلى الله عليه وسلم لأمته جميع ما نزل إليه من ربه ولما استنطق الناس يوم عرفة وقال: (وأنتم تسئلون عني فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك وأديت ما عليك.

والبلاغ لا يكون بمجرد التبليغ اللفظي بل تبليغٌ لفظيٌ ومعنوي.

قال: (وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيءٌ من كلام المخلوقين) يجب يا عبد الله ويا طالب العلم أن يمتلئ قلبك بهذا المعنى وأن تعلم حقاً أن كلام الله لا يدانيه كلام ولا يقارنه كلام ولا يجوز لكائنٍ من كان أن يعارض كلام رب العالمين بكلام أحدٍ من الخلق يجب أن يكون لكلام الرب سبحانه وتعالى في القلب منزلة وتعظيم وشرف وقدر بحيث لا يعارض به كلام أحدٍ ولا من الفقهاء ولا من العلماء ولا من غيرهم بل يرى أنه الحق{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ } [فصلت: ٤٢] إذا امتلأ القلب بذلك فتح الله للعبد من كنوز القرآن وأسراره وعلومه ما لم يكن له في الحسبان هذا التعظيم وهذا الإجلال ضروريٌ لتحصيل العلم، أما إذا كان الإنسان يقرأ القرآن بنفسٍ باردة وعدم اكتراث فلا ينتظر أن ينال هذه المعارف وأن يصل إلى مبتغاه، من أقبل على القرآن بكليته وبذل مهجته له فإن الله سبحانه وتعالى يهديه بالقرآن العظيم {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الإسراء: ٩].

ثم قال –رحمه الله–(ولا نقول بخلقه) أي كما قالت المعتزلة **(ولا نخالف جماعة المسلمين)** وذلك أن جماعة المسلمين من جميع المذاهب ولله الحمد يقولون القرآن كلام الله منزلٌ غير مخلوق ولا سيما القرون الثلاثة الفاضلة الذين لم تختلف كلمتهم في هذا فهم السواد الأعظم وعليهم المعول في فهم مراد الله تعالى ومراد نبيه .

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بالقرآن العظيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..